﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: 1]

في الشُّروع بالتّسميَة إيماءٌ إلى مُراقَبة الله تعالى، ودَعْوةٌ إلى مَخافته، وإقرارٌ بأنَّ منه الابتداءَ، وإليه المُنتهى

❁ مُنَاسَبَةُ الاِفْتِتَاحِ بِهَذِهِ الآيَةِ:

لمَّا كان من مقاصدِ الفاتحة: معرفةُ اللّه تعالى مِنْ أجل تحقيق كمَالِ عُبُوديَّتِهِ، "وكان التِزَامُ اسمِه تعالى في كُلِّ حركةٍ وسكُون قائدًا إلى مراقَبَتِه وداعيًا إلى مَخَافَتِه واعتقادِ أنَّ مصادرَ الأمورِ ومَوَارِدَها مِنْهُ وَإِلَيْهِ؛ شُرِعَتِ التَّسْمِيةُ أَوَّلَ كُلِّ شيءٍ، فَصُدِّرَت بِهَا الفاتحَةُ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) الباء في ﴿بِسۡمِ﴾: للاستِعَانةِ، أو المصاحبة والملابسة على وجه التَّبَرُّك، والأوَّلُ: أَقْوَى[2]؛ لكونهِ أدخلَ في التَّعظيم[3]، ولا مانعَ مِنْ حَمْلِ الحرفِ على مَعْنَيَيْهِ المذكورَيْنِ معًا[4]، بل إنَّ هذا أنسبُ ببلاغةِ القرآنِ؛ إذْ فِيهِ توسيعٌ للدّلالة وتكثيرٌ لمعاني اللَّفظ الواحِد.

2) ﴿بِسۡمِ﴾: مشتقٌّ مِنَ السُّمُوِّ على الصَّحيح[5]، والدَّليل على ذلكَ قَوْلُهم في جمع (اسم): أسماء، وقولُهُم في تصغيره: سُمَيٌّ، والجمعُ والتّصغير يَرُدَّان الكلماتِ إلى أصولها، ولو كان من (الوَسْم)؛ لجُمِعَ على: أوسام، وصُغِّر على: وُسَيْم؛ وهو "ما يُعْرَفُ بِه ذاتُ الشَّيءِ"[6].

---

(1) البِقَاعِي، نَظْمُ الدُّرر: 1/22.

(2) السَّمِين الحلبيُّ، الدُّرّ المصون: 1/14.

والقول بأنَّ الباء للمصاحبةِ أو الملابسة تَبَرُّكًا، اختاره الزَّمخشريُّ، ينظر: الكشَّاف 1/4، وهو قول لا بأسَ به؛ بشرطِ عَدَمِ إرادةِ نفي معونةِ الله لخلقِهِ، واعتقادِ استقلال العبدِ بالفعل، كما يراه المعتزلةُ!

(3) حاشية زَادَه: 1/35.

(4) عند مَن يرى حَمْلَ المشترك على معنَيَيْهِ أو معانيه، وهو قول الجمهور، وهو قول قويٌّ. الشَّوكانيُّ، ينظر: إرشاد الفحول: 1/59.

(5) الخليل، العين: (باب السين واليم و: و ا ي ع)، والجوهريُّ، الصحاح: (سما)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سمو).

(6) الرّاغب، المفردات: (سما)، وللرَّاغب أيضًا كلامٌ نفيسٌ في معنى الاسم، تأتي الإشارة إليه عند تفسير قولِ الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31].

أمَّا الاسم باعتبار إضافته إلى اللّهِ تعالى؛ فيُراد به: ما دَلَّ على ذاتِ اللّه ﷻ مع صفةِ الكمَالِ القائمَةِ به[1].

3) ﴿ٱللَّهِ﴾: علَمٌ على المعبودِ بحقٍّ، وهو مشتقٌّ -على الصَّحِيح- وليس جامدًا؛ فإنَّ أسماءَ اللّهِ تعالى أَعْلَامٌ وأوصَافٌ باتِّفاق أهل السُّنَّةِ والجمَاعة[2]، ولَازِمُ ذلك أنَّها مُشْتَقَّةٌ[3]؛ إذِ الجامدُ لا وَصْفَ فيه.

واشتِقَاقُهُ مِنَ الأُلُوهة -على المُخْتَارِ-، وأَصْلُه: الإِلَهُ، حُذِفَتْ همزتُهُ تخفيفًا[4]؛ لِكثرة دَوَرانه على الأَلْسِنَةِ[5]، وأُدْغِمَتِ اللَّام في مِثْلِها وفُخِّمَتْ تعظيمًا لله تعالى[6]، وَتَرْقِيقُها بعد كَسْرٍ إنَّما كان مِنْ أجل الثِّقَلِ المُتَرَتِّبِ على الانْتِقَال مِنَ الكَسْرِ إلى التفخيم، لَا لِسَلْبِ التَّعظيم ههنا، كما لا يَخْفَى.

وَمَعْنَى اسم (اللّه) عَلَمًا -كما قال ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ-: ذُو الألوهِيَّة والعبُودِيَّة على خَلْقِهِ أجمعين[7].

و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أَصل كتابته: باسْم اللّهِ، بالألف، كَقَوْلِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وَإِنَّمَا حُذفت الْألفُ في الْكِتابَة؛ لأَنَّها لَا تظْهرُ في اللَّفْظ، وَقيل: إِنَّمَا حذفت لِكَثْرَة الاسْتِعْمَال تَخْفِيفًا؛ وَلِأَنَّهُ كثر اسْتِعْمَالهَا؛ فاستَخَفُّوا حذفهَا، بِخِلَاف قَوْله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ونظائره؛ لِأَنَّه لم يَكْثر فيه الاسْتِعْمَال[8].

4) ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمَان مَنْ أسمَاء اللّه تعالى، مُشتَقَّان مِنَ الرَّحمة، وبَيْنَهُمَا فرقٌ في المَبْنَى والمعنى.

فأمَّا مِن جهة المَبْنَى؛ فالرَّحْمَنُ على زِنَةِ: فَعْلَان، والرَّحِيم على زِنَةِ: فَعِيل، والأَوَّلُ على خمسة أحرف، والثَّاني على أربعة.

(1) ابن تيميَّة، الإيمان، ص: 148.
(2) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 1/285.
(3) ابن القيِّم، الكافية الشَّافية، ص: 216.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/125.
(5) الجَوْهَرِي، الصحاح: (أله).
(6) الفَيُّومِي، المِصباح المنير: (أله).
(7) ابن جرير ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(8) السَّمْعاني، تفسير القرآن: 1/32.

وَيَجْدُرُ التَّنبيهُ إلى أنَّ زنةَ (فَعْلَان) لا تكون إلا لِلمُبَالغة، بخلاف (فَعِيل) فتكون لِلمُبَالَغَة وغيرِهَا، وَلِذَا قرَّر جماعةٌ مِنْ أهل العلم أنَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أبلغُ مِن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[1]؛ لكونِ الأَوَّل على وَزْنٍ هُوَ نَصٌّ في المبالغة، ومِنْ جهةِ كثرَةِ حروفِه؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنَى تَدُلُّ على الزِّيادة في المَعْنَى[2]، ويرى ابن هشام أنّ هَذَا لَيْسَ بِلَازِمٍ[3].

وأمَّا مِنْ جهة المعنى؛ فوقَعَ فِيهِ نِزَاعٌ طويلٌ بين أهل العلم، فقيل: "الرَّحمن: اسم خاصٌّ بصِفَةٍ عامَّة، والرَّحيم: اسم عامٌّ بصفَةٍ خاصَّةٍ"[4]، وقيل -وهو الأَقْوَى-: "إنَّ الرَّحمن اسم دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيم اسم دالٌّ على تَعلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم"، وقد قال ابْنُ الْقَيِّم بَعْدَ ذِكْرِهِ هذا الفَرْقَ: "وهذه نُكْتَةٌ لا تكاد تجِدُها في كتابٍ"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أبتدئُ قراءةَ القرآنِ الكريم باسم اللهِ تعالى المعبودِ بالحقِّ، المتّصف بصفات الكمال والجَلال والجمال، المَنْعوت بالرَّحمة الواسعة والدّائمة والوَاصِلَة إلى جميع المَرْحومين، فرحمتُه وسِعَت كلَّ شيء، وعمَّت كلَّ حيٍّ، وكتبها للمتقين المتَّبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمةُ المطلَقة، ومن عدَاهم فلهم نصيبٌ منها، مُسْتَعِينًا به مُتبَرِّكًا بِذِكْرِهِ[6].

في الشّـــروع بالبسملَة تأديبٌ للعِباد بضَرورة تَقْديم اسْم الله تعالى بَيْنَ يَدَي كلّ أمرٍ

وفِي هَذَا تأديبُ اللهِ عبادَهُ بإرشادِهم إلى تَقْدِيمِ ذِكْرِ اسْمِهِ سُبحانه بَيْنَ يَدَيْ جَمِيعِ أُمُورِهم[7].

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 2/80.
(2) ابن جِنِّي، الخصائص: 3/271.
(3) ابن هشام، مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، ص: 185.
(4) محمد بن علّي التَّهَانَوِي، موسوعة كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/847، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذه المسألةِ.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/24.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/114-115، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/114.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسْنُ الِافْتِتَاحِ وَبَرَاعَتُهُ بِالبَدَاءَةِ بِالبَسْمَلَةِ:

يَكْفِي الفاتحةَ حُسنًا وبراعةً افتتاحُها بِذِكْرِ اللهِ تعالَى

مِن مواضع التأنُّقِ في الكلام: طَالِعَتُهُ؛ لِذَا جَرَت عادةُ البلغاء في كلامهم أن يُعنَوا بمُفتَتَح الكلام ومَطلَعه؛ لِكَونه أوَّلَ ما يَقَعُ في سَمْعِ المُتَلَقِّي، وقَدِ افْتُتِحَت هذه السّورةُ الكريمة بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وَهُوَ افْتِتَاحٌ بَدِيعٌ؛ فيَكْفِيها حُسنا وبراعةً افتتاحُها بِذِكْرِ اللهِ تعالَى[1].

وَفِيهِ - زِيَادَةً على حُسْنِ الِافْتِتَاحِ - بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ[2]، وهو أخصُّ مِنْ سابقِهِ؛ ووَجْهُ ذلك: ذِكْرُ اسمَيْنِ مِن أسماءِ اللهِ تعالى - وهما الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ - مُشْتَقَّان مِنَ الرَّحْمَةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ من السُّورَةِ ومِنَ القرآنِ كلِّه: رحمةُ اللهِ بخَلْقِه؛ بِهِدَايَتِهم إلى ما فيه فَلَاحُهم في الدُّنيا والآخرة، وقد قال رَبُّنا تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 2].

الإِرْشَادُ وَالتَّعْلِيمُ فِي جُمْلَةِ البَسْمَلَةِ:

الشّروعُ بالبَسملة تعليمٌ للعِباد ضرورة ابتداءِ جَميع أعمالِهم باسم الله ﷻ

جُملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ خَبَرِيَّةٌ؛ إِذْ تَقْدِيرُ الكلامِ فِيهَا: بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ، أو أبتدِئُ قراءتي باسم الله -كما سيأتي قَرِيبًا - ، وقد خَلَتْ مِنَ المؤكِّدَاتِ، فكانت خَبَرًا ابْتِدَائِيًّا؛ لعدمِ وُجودِ داعٍ للتَّوكيدِ.

ويحتمل أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً إِنْشَائِيَّةً، إذا قُدِّر قَبْلَها: (قُولُوا) - وهو قولُ جماعة مِنْ أهلِ التَّفسير[3] -، ويكونُ هَذا مِن بَابِ الإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ[4]، وأُسْلُوب الأمر يَأْتِي كثيرًا لهَذَا المَعْنَى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/54.
(2) بَراعَةُ الاسْتِهْلَالِ: «أن يكونَ في طالعة الكلام ما يُشير إلى مقصود المتكلِّم من غير تصريح». عبد المتعال الصَّعِيدِي، بغية الإيضاح: 4/134.
(3) محمود بن حمزة الكَرْمَانِي، غرائب التَّفسير: 1/97، وقد نَسب هذا القولَ إلى جُلِّ المفسِّرين.
(4) ابنُ جرير، جامع البيان: 1/139.

حَرْفُ البَاءِ بَيْنَ الِاحْتِرَاسِ وَالمَجَازِ:

فائدةُ الاحتراس في ذِكـــر لفظ (اســـم) قَـبْـلَ الجلالة التَّمْييزُ بـين الـتَّـيـمُّـنِ واليَمِين

وقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، سبقَ آنفًا أَنَّ الباءَ فيه: للاستعانةِ، أو المُصاحبة والمُلابسة، على وجه التَّبَرُّك.

فإذا قلنا إنَّها للاستعانة؛ ففي الجملةِ إِطْنَابٌ بزِيَادَةِ (اسْم)، والأَصْلُ: باللهِ؛ إِذِ الاستعَانَةُ تكونُ باللهِ تعالى لا باسْمِهِ، وفائدةُ زيادةِ (اسْم): دَفْعُ اللَّبْسِ؛ إِذْ لو قيل: (باللهِ) لاحتَمَلَ الكلامُ أَنْ يكونَ قَسَمًا، فجيءَ بـ(اسم) للتَّمْيِيزِ بين التَّيمُّنِ واليَمِين[1]، فيُمكِنُ إدراجُهُ تحت الاحْتِرَاسِ[2]؛ لِمَا فِيهِ مِنْ دَفْعِ الإيهَام.

ويَحْتَمِلُ أَنْ لا إِطْنَابَ في الآيةِ؛ إِذِ الاستعانَةُ تكون تارَةً باللهِ تعالى، وتارةً باسمِهِ، ولِكُلٍّ وَجْهُهُ[3].

من مَعاني الباء الإلصاق، وفيها إيماءٌ إلى شِدّة التِصاقِ العَبْد بربّه

والأَصْلُ في البَاءِ: أَنْ تكون للإلصاق، وقد ذكَر ابْنُ هِشَام أَنَّ الإلصَاقَ لا يُفَارِقُ الباءَ في جميع تصرُّفاتِهَا في الكَلَام[4]، وعلى هذا فَاسْتِعْمَالُهَا في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ لمعنى الاستعانة يَكُونُ من باب الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ[5].

فأَمَّا كونُها مَكْنِيَّةً؛ فَلِأَنَّه "شُبِّهَ الارتبَاطُ على وجه الاستعانة بالارتباط على وجه الإلصاق، بِجَامِعِ مُطْلَقِ الارتِبَاط في كُلٍّ، فسَرَى التَّشبيهُ للجُزْئِيَّات، فَاسْتُعِيرَتِ البَاءُ الموضوعَةُ للإلصاق الجُزْئِيِّ للاستعانة الجُزئِيَّة على طريق الاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّة"[6].

وأَمَّا كونُهَا تَبَعِيَّةً؛ فلأَنَّ استعارَةَ الحُرُوف كذلك[7]؛ إِذْ إِنَّها تجري في مُتَعَلَّقات معانِيها أَوَّلًا ثُمَّ تَسْرِي فِيهَا ثَانِيًا[8].

---

(1) الواحِديُّ، التَّفسير البسيط: 1/443.

(2) الاحتراس: «أن يأتي المتكلّمُ بمعنى يتوجَّهُ عليه فيه دخلٌ وطعنٌ، فيفطن له، فيأتي بما يزيل ذلك الوهَم ويخلّصُهُ منه». ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير: 2/245، والقزويني، الإيضاح، ص: 192.

(3) توجيه ذلك عند: أبي السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/9-10.

(4) ابنُ هِشَام، مغني اللَّبيب، ص: 137.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/10.

(6) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.

(7) السُّبْكي، عروس الأفراح: 2/172.

(8) السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 380.

ويحتَمِل أن يكونَ الإتيانُ بالباء مِنْ باب المَجَازِ المُرْسَلِ، عَلَاقَتُهُ: الْإِطْلَاقُ وَالتَّقْيِيدُ؛ ووَجْهُ ذلك أنَّ البَاءَ لِارْتِبَاطٍ مُقَيَّدٍ بالإلصَاقِ، فأُطْلِقَ عَنِ القَيْدِ، "واسْتُعْمِلَت في الارتِبَاط على وَجْهِ الاسْتِعَانَة"[1].

إيجازُ القِصَرِ في إضَافَةِ الْعُمُومِ إلى الخُصوص:

من معاني الإضافة أقرأُ مُسْتَعِينًا بذِكْرِ كُلِّ اسْمٍ مِنْ أسماء الله تعالى

في قَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: إضافةُ العَامِّ -وهو (اسم)- إلى الخَاصِّ -وهو اسم (الله)-، وهذا: إيجَازُ قِصَرٍ[2]، وهو دالٌّ على العُموم؛ أي: أقرأ مُسْتَعِينًا أو مُتَبَرِّكًا بذِكْرِ كُلِّ اسْمٍ مِنْ أسماء الله تعالى[3].

إيجَازُ الحَذْفِ فِي البَسْمَلَةِ:

كلُّ شارعٍ في أمرٍ يُضْمِرُ مَا جُعِلَتِ البسملةُ مَبْدَأً له

قولُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: شبه جملة تفتقِرُ إلى متعلَّقٍ، وهو هَهُنَا محذوفٌ، ففيه إيجَازٌ بالحَذْفِ، وَتَعْيِينُ المحذوفِ يكون بِحَسَبِ السِّياقِ؛ إذْ كلُّ شارعٍ في أمرٍ يُضْمِرُ مَا جُعِلَتِ البسملةُ مَبْدَأً له، وتقديرُهُ في الآيةِ الكريمَةِ: بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ؛ لأنَّ الذي يَلِي التسميةَ مِمَّا يُقْرَأُ[4].

دلالة المُتَعَلَّقِ المَحْذُوفِ عَلَى القَصْرِ وَالتَّجَدُّدِ الِاسْتِمْرَارِيِّ:

تقديرُ متعلَّقِ البسملة فِعْلًا (بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ) أَوْلَى مِن تقديرِهِ اسمًا (بِاسْمِ اللهِ قِرَاءَتِي)؛ لأنَّ الأصلَ في العملِ للأفعال، ولأنَّ الفعلَ المضارع يُفيد التجدُّدَ الاسْتِمْرَارِيَّ، وهو أَنْسَبُ لِتَجَدُّدِ القراءةِ ونحوِهَا.

تقديرُ الفعلِ المُضارِعِ أَنْسَبُ في إفادة تَجَدُّدِ القراءةِ

والمُتَعَلَّقُ المذكورُ إمّا أنْ يُقَدَّرَ مُؤَخَّرًا، ويدلُّ ذلك على الاهتمام باسم الله تعالى لِئَلَّا يتقدَّمَ عليه شيءٌ؛ فإنَّ المقامَ مقامُ استعانةٍ بِهِ سُبحانَه[5]، ولأنَّ في تأخيرِهِ إفادةً للقَصْرِ؛ إذْ تقديمُ ما حَقُّه التَّأْخِير يفيدُهُ.

تقديرُ الفعلِ المضارعِ مُتأخِّرًا (باسم الله أقرأُ) لئلاّ يتقدَّمَ على اسم الله شيءٌ

(1) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.
(2) إيجَازُ القِصَرِ هو: أنْ يُبنَى الكَلامُ على تقليلِ اللَّفظِ وتكثيرِ المعنى مِنْ غَيْرِ حَذْفٍ، ينظر: الرُّمَّاني، النكَتُ في إعجازِ القُرآن، ص: 76.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/2.
(5) الزّمخشريّ، الكشاف: 1/3، والدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.

وإمّا أن يُذْكَرَ المتعلَّقُ مقدَّمًا مثل في قولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العَلَق: 1]؛ لأنَّ المقامَ مقامُ قراءةٍ؛ فكان الأمرُ بها أهمَّ[1]، والبلاغةُ تَقْتَضِي تقديمَ الأهمِّ ومطابقة الكلام لمُقتضى الحالِ.

وَحَذْفُ المتعلَّقِ يجوزُ أن يكونَ مَجَازًا بِالْحَذْفِ عند مَنْ يرى أنَّ الحذفَ مَجَازٌ مُطلقًا، بخلاف مَن يَرَى أنَّ الحذف ليس مَجَازًا مطلقا أو يَرَى أنَّهُ مجازٌ إذا تغيَّر إعرابُ باقي الكلام بِسَبَبِه؛ فإنَّه ليس مَجَازًا عند هؤلاءِ[2].

المَدْحُ بِالوَصْفِ:

فـائـدة ذكـر الاسـمـين الجليلين المَدْحُ والـثّـنـاءُ لا التّوضيحُ

قولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان للاسم الأَحْسَنِ الأكمل الأجلّ ﴿ٱللَّهِ﴾، وفائدةُ الوصفِ هَهُنَا: المَدْحُ لا التَّوْضيحُ؛ إِذِ الموصوفُ مُتَعَيِّنٌ قبلَ الوصفِ[3].

أَبْلَغِيَّةُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عَلَى ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وَجَمْعُهُمَا لِلتَّوْكِيدِ:

قُدِّمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لأسبابٍ بيانيَّةٍ:

أولاً: لكونِ صفةِ الرَّحمنِ أبلغَ، ولأنَّها مُخْتَصَّة باللهِ تعالى، فكانتْ جاريةً مَجْرَى الأعلام[4]، فقُدِّمَتْ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، والجَمْعُ بين الصِّفَتَيْنِ: ضَرْبٌ مِن ضُرُوبِ التَّوكيدِ؛ بالنَّظرِ إلى اشتمال الاسْمَين على مُطْلَقِ صِفَةِ الرَّحمةِ.

الـجَـمْـعُ بين الـصِّـفَـتَـيْنِ (الـرّحـمـن الرّحيم) ضَـرْبٌ مِـن ضُـرُوبِ التَّوكيدِ؛ بالنَّظرِ إلى اشـتـمـال الاسْـمَـين على مُطْلَقِ الرَّحمةِ

ثانياً: لفظُ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يُفيدُ كثرةَ تَعلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم على وجه المُبالغة، أمَّا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فلفظٌ خاصٌّ بالاتِّصاف الذَّاتي، وما كان خاصًّا بالاتِّصاف الذّاتي أولى بالتَّقديم من الصِّفة الدَّالَّة على كَثرةِ تعلُّقاتها.

ثالثاً: ما وَجَّهَ به الإمامُ النَّيسابوري في غرائبه حيثُ قال: "قدَّمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وهُو الأعلى على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، والعادةُ التَّدرُّجُ من الأدنى

(1) القِنَّوْجِيّ، فتح البيان: 1/40.
(2) الدُّسُوقِي، حاشية على مختصر المعاني: 1/4.
(3) الصَّعِيدي، بغية الإيضاح: 1/99.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/27.

إلى الأعلى؛ لأنَّ الرَّحمنَ يتناولُ عَظائِمَ النِّعم وأُصولَها، فإردافُهُ بالرَّحيم كالتَّتِمَّةِ لِيتناوَلَ ما دَقَّ منه ولَطُفَ" [1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّحْمَن وَالرَّحِيم:

الرّحمنُ يُفيدُ المُبالغةَ في الاتِّصافِ بالرَّحمة، والرَّحيمُ يُفيدُ دَوامَها

بَيْنَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فروقٌ من جهة المبنى والمعنى سبق ذِكرُ بعضٍ منها، نُجملها فيما يأتي:

أولًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: على وزن فَعلان، وزن يفيد المبالغة في الاتّصاف بالرّحمة، وصيغة (فَعلان) تدلُّ على الصِّفة العارضةِ، ولا تدلُّ على الصِّفة الدَّائمة، فاحتيجَ إلى صيغةٍ أُخرى تَدلُّ على الصِّفة الثَّابتة، وهي صِيغةُ (فَعِيلٍ)؛ مِن هنا حَسُنَ الجمعُ بين الاسمين الكريمين بالصِّيغتين المُختلفتين.

الرَّحمن اسمٌ مُختَصٌّ باللهِ تعالى لا يجوزُ أن يَتَسَمَّى به غَيْرُهُ، والرَّحيم اسم عامٌّ بصفة خاصَّة

ثانيًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: اسم خاصٌّ بصفة عامَّة، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: اسم عامٌّ بصفة خاصَّة[2]، فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اسم مختصٌّ باللهِ تعالى لا يجوز أن يَتَسَمَّى غَيْرُهُ به، وهو مشتمِل على صفةٍ عامَّةٍ؛ إذ معناه: المُتَّصِف بالرَّحمة العامّة التي تَعُمُّ المؤمنَ والكافر، بخلاف ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو اسم عامٌّ، يُطلق على اللهِ ويُطلق على غَيْرِه -مَعَ التَّبايُنِ في حقيقة الصِّفة عند التَّخْصيص والإضافة-، وهو مشتمل على صفة خاصَّةٍ؛ إذ معناه: المُتَّصِفُ بالرَّحمة الخاصَّة بالمؤمنين؛ لقولِه: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]، ووجهُ الدّلالة: أنَّه قُدِّم الجَارُّ والمجرورُ وحقُّهُما التَّأخيرُ، فأفاد ذلك القصرَ، وفي هذا الاستدلالِ نَظَرٌ؛ إذْ ليس كلُّ تقديمٍ لِمَا حَقُّه التَّأخير مُفيدًا للقَصْرِ، ويدلُّ على عدم إرادة القَصْرِ هَهُنَا قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 1/142.

(2) التَّهَانَوِي، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/847.

فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسْرَاءُ: 66]، والآية عامَّةٌ في الخَلْقِ مُؤْمِنِهم وكَافِرِهم كَما هو ظَاهِرٌ مِنْ سيَاق الآيةِ.

ثالثًا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيم دالٌّ على تَعَلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم، وَلِذَا لم يَرِدْ في القرآن قَطُّ: (رَحْمَنٌ بِهِمْ)؛ "فَعُلِمَ أَنَّ (الرَّحمن) هو الموصوف بالرَّحمة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو الرَّاحم برَحْمَتِه"[1]، أي: أنَّ الرَّحمن لِلوَصْفِ، والرَّحِيمَ لِلفِعْلِ.

الرَّحمن دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيمُ دالٌّ على تَعَلُّقِ الرَّحمة بالمرحومِ

ومن أوائل مَن ذكر هذا الفرقَ أبو عُبَيْدة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى؛ إذْ قال: "﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مجازُهُ: ذو الرَّحمة، وَ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ مجازُهُ: الرَّاحم"[2].

رابعًا: لفظ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عربيٌّ مشتقٌّ من الرّحمة، ولا حجّة لمن قال إنّه اسم عبرانيٌّ[3]، وهو ادِّعاءٌ مُفْتَقِرٌ إلى دليلٍ واضحٍ قويٍّ سالمٍ مِنَ المُعَارِضِ، وقد ثبت عَنِ العرب استعمالُهم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في نثرهم[4] وأَشْعَارِهم[5]، وأمَّا إِنْكَارُهُمُ المَحْكِيُّ في سورة الفُرقانِ؛ فهو مُكَابَرَةٌ مِنْهُمْ[6].

لفظ (الرَّحمن) عربيٌّ مشتقٌّ من الرّحمة، والقولُ بأنّهُ عِبْرانيٌّ ادّعاءٌ وتقوُّلٌ

الرَّحمَة والرَّأفة:

كلمتان متقاربتان في المعنى، إلَّا أنَّ بينهما فرقًا لطيفًا، فبينهما عموم وخصوص مُطْلق؛ فالرأفة خاصة في دفع المكروه عن المرحوم، بينما الرحمة تشمل هذا المعنى وغيره.

فالرأفةُ: رقَّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به. يقال: (رؤوف رحيم). والرحمةُ: رقَّةٌ تقتضي الإحسان للمرحوم[7].

---

(1) ابنُ القيّم، بدائع الفوائد: 1/24.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/21.

(3) وهو قول ثَعْلَب، الواحديّ. يُنظر: التّفسير البسيط: 1/257.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/482، والجوهري، الصحاح: (رحم).

(5) قال سَلاَمَة بنُ جَنْدَل:

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا عَلَيْكُمْ***ومَا يَشَأِ الرَّحْمَنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ

الأصمعي، الأصمعيّات، ص: 136.

(6) ابْنُ جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/85.

(7) ابْنُ عاشور، التحرير والتنوير: 10/239.

ويفرق بين الرأفة والرحمة بأنَّ الرّأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه وإزالة الضرر، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2]، أي: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجَلْد عنهما، وأمَّا الرحمةُ فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإفضال والإنعام[1].

والرّحمة - أيضاً - هي أن يوصِل إليك المسارَّ، والرأفة هي أن يدفع عنك المضارَّ، فالرحمة من باب التزكية، والرأفة من باب التَّخْلية، والرأفة مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصة، هي رفع المكروه وإزالة الضر، فذِكْرُ الرحمةِ بعدها في القرآن مُطَّرداً؛ لتكون أعمَّ وأشمل[2].

والرّأفةُ أشدُّ الرحمةِ، وأبلغ منها، ولذا قدَّمها الله تعالى على الرحمة في خمسة مواضع من كتابه الكريم، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحج: 65]؛ فمناسبة (رَءُوفٞ رَّحِيمٞ) تَقْدِيمًا وتأخيرًا أُريد منه أنَّ التوكيد يكون في الأبلغ في المَعْنى، فَإِذا تقدَّم الأبلغُ في اللَّفْظ كَانَ المَعْنى مُؤَخرًا[3].

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 4/93.
(2) الكفوي، الكليات: 1/742.
(3) الجوهري، الصحاح (رأف)، وأبو هلال العسكري، الفروق اللغوية ص: 196.

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة